

«محمد علي رود.. وكفاح الآباء والآجداد (2-2)»



عبدالنبي الشعلة *

وسيوفه وزيناته وعملائه، وقد أغلق نهاية القاعة التي كانت تستخدم في الساقية كضييف لإقامة زوار يومياً من عملاء الشركة من الكويتين وغيرهم من الخليجيين. كان أبوه قصيل، عبى الجناعي إنساناً وقوزاً روزيناً ودوداً، يجهز كل من يتعرف عليه ويتناول معه، ورائحته كريم نفس سخياً حجب الخير، دعث الأخلاق والمعشر، درج أعمال مذاقاً أميناً ينبعه ويجده وشق به الجميع، وينتمي الجماعة أو عائلة "القناعات" التي هي من أكثر الأسر الكويتية شهرة، وكان يطلق حلقة موسرة كبيرة لوالده المثقف وأحد أعلام التأثير في الكويت العلامة الشيخ يوسف بن عيسى القناعي مؤسس مدرسة المباركة الناظمة في الكويت في العام ١٩١٢م.

وأثناء إقامته في يومي، وبعد أن تعزّزت عليه، كنت أحرص بـوقائيه لتأدية واجب

التجارة والسلام، والاستثادة مما يدور وحال في هذا المكتب القريب في روحه من الديوباتيات الكويتية، وتناول التمر والقهوة العربية والستاء إلى توجيهاته وصانهه وذكرهاته، وإلى مساجلات ومساومات التجار الهنود الذين كانوا يتعاملون معه، وإلى حكايات وأحاديث التجار الكويتيين الذين كانوا يزورونه لإيجاز الصفتات التجارية. وإلى زدوده على المكالمات الهاتفية التي كانت تردد من الكويت، وإلى فحوى الرسائل التي تصله وباقتها بشكل مفتوح مع مساعدته من الهند، وكانت أنيه واستمعت عندما كنت اسمعه يتحدث الهندية بطلاقة وكلمة كويتية جميلة.

في مكتب عبي الجناعي، ومكتب أحمد القاضي، في المدرسة العربية، في شارع محمد على مقاهيه، كانت ذاكراً الناس، في نهاية السنتين وببداية السبعينيات، ما زالت طيبة طيبة مشبعة بصور وذكريات الماضي القريب، فسمعت الكثير من القصص الحقيقة، وسمعت عن الكثير من الأحداث التي كانت تقع في ذلك الشارع للتجار الخليجيين وبين بعضهم البعض، كانت بعض القصص المتعلقة ببيع اللؤلؤ وتوريث الذهب أقرب بل أقرب من الخيال.

وسمعت أسماءً زادت طولاً تتردد على ألسن الناس، والتقيت عدداً منها، أسماءً عائلات وبيوتات تجارية خلجة معروفة كانت لها سمعة ومكانة مرموقة ساطعة في الساحات ولابد من الاهتمامية والاحتضانية، والسماوية على شخصي البدر العربي، مثل: الإبراهيم، والقاضي، والشاعر، والمقرن، والبيارق، والمرزوقي، والصانع، والساير، والغامض، والخرافي، والهارون، والماشري، والطبيري، والشيشاني، والشامي، والبلطيجي، والفالدي، والعيصي، والصaser. ومن المملكة العربية السعودية وبالي الدول الظاهرية عوائل: القاضي، والساير، والقصبي، وزين، والغورزان، والنخل، والزريق، وغفور، وكالو، والمناعي، وعطر، والعربيض، والمدربع، والمدقع، والبيستكي، والبندي، ومقطفي بن عبد الطيف، ولوهان، والتابودة، والمادج، والقاني، والسلطان، والهجرس، وعشارات غيرهم لا تستطيع ذكرك أن استرجع اسمائهم بعد مرور نصف قرن على تلك الأيام.

وإلي زيلال مدين القصالية الكويتية في يومي الذي تم افتتاحه بعد استقلال الكويت، يضم قسماً خاصاً بـ"المدرسة العربية" التي أستئنها دولة الكويت بأمر من أميرها المغفور له بإذن الله تعالى صاحب السمو الشيخ عبد الله السالم الصباح، تدرس اللغة العربية لأبناء السلك القنصلي العربي والجالية العربية في يومي وفي مساء كل يوم وحتى منتصف السبعينيات، كان هذا المكان يتحول إلى مركز يلتقي فيه من يتقى في يومي من التجار الخليجيين والعرب لشطب الفهوة وقراءة الصحف العربية وتبادل الأخاديد واسترجاع الكريات والجملة، إلا أنه مع كل الأيام وفراها، واقتلاع الآسالي وابرارها أخذت ذاكرة هذا النهر القليل في الفضحلاح والضمور، وأعماهم في تقديم رحضا نحو القدر المحظوم، فصار عددهم يتراوح يوماً بعد يوم إلى أن اختارهم الله واحداً تلو الآخر إلى جوار الورفطل الكريبي.

فرحهم الله جيئوا، وشكراً لما يخرجني ومنتجي ومتقدلي مسلسل "محمد علي رود" هذا العمل الفني الرائع الذي أحبها وأذكرة وأتعش العجاد، وتنطليه لمزيد من مثل هذه الأعمال الفنية الباردة.

* كاتب بحريني

أشرنا في وقتنا الماضية إلى الله، ومنذ بداية الثلاثينيات من القرن الماضي، شهد «محمد علي رود» أو شارع محمد على، مولات وجولات التجار الكويتيين والخليجيين، وانطلاقهم فيه ومنه إلى باقي المدن والماكاز التجارية الهندية، ولوان الخليجية وبعض الموانئ الإفريقية، وظل وجودهم وحفورهم فيه بارزاً نافذاً إلى أن أخذ في الانحسار تدريجياً نهاية الخمسينيات أو بداية السبعينيات، بعد أن بدأ ثبات ثبات النفط الكويتي تتساقط بشكل ملحوظ على المجتمع الكويتي في بداية الخمسينيات، حيث كانت أول خطوة منه قد تم تصدريها في العام ١٩٤٦م، كما أن الكويت قد نالت استقلالها في العام ١٩٦١م؛ فباتت الكويت تعود لأوكارها للمساهمة في بناء الدولة الاستقلالية الفتية، ودعم اقتصادها، مُسلح بالخبرة التي اكتسبوها في الهند وفي شارع محمد علي بالتحديد.

وقد وصلت إلى يومي في النصف الثاني من العام ١٩٦٩، وكانت أقيم في السكن الجامعي الذي يبعد أمانياً عن «محمد علي رود»، ومنذ وصولي وخلال الأربع سنوات اللاحقة شاهدت أنياب يومياً في هذا الشارع العربي الذي ظل التاريخ يعبر من خلال أروقتنه وعلى أرضيته لأكثر من ٢٥ عاماً مند أن جاء الإنجيز في الأساس ليكون «شانزالزي» يومياً، مهاطاً على جانبيه بمبانٍ تجارية وسكنية حديثة أخذت معها السنين وألادي الإهمال قد وتسطوا

عليها انتشار من روتها وروعة تصاميمها المعمارية الهندية المترفة بين التصاميم المغولية الهندية ذات الطابع الإسلامي، وتصاميم طازار الديكرو «الفرنسي»، وفي العجمار الكلاسيكي والقطوي المجلدين الذين خررت بهما شوارع باريس وروما في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ويقف شارع محمد على في قلب مدينة يومي العاصمة الاقتصادية للهند، في منطقة يقطن أهلها سكان من الهند، في المسلمين بإمدادات كبيرة تصاميم هندسية تضاهي تصاميم مبانيه منها: مسجد المارة، ومسجد زكريا، وغيرها، وتقرب منه العديد من الأاقة والطرقات؛ من أشهرها: "عبد الرحمن سرتيت" الذي سمي باسم التاجر التجاري عبد الرحمن المنين من بلدة "شقر" الذي عرف بتجاره للخروف العربية الأصيلة، وكأن إنسان خليجي، كنت أحسن باليه و أنا أجول في شارع محمد على لاكتشاف كل يوم المزيد من نفحات الماضي وقابياً تراث التجار الكويتيين والخليجيين، وما تبقى من مآثرهم أثراً، وقد كانت أثناهم وأداءً أموالهم ودين فاجن القوية العربية التي كانوا يحتسونها لا تزال تتتردد في مقاهي ومقاهي وزوايا متاجر ذلك الشارع.

و قبل أن أدخل في شارع محمد على كنت أغير سوق يومي المركزي الذي ينادى أثراً كروفورد ماركت "لأى أيام مجتمع سبتارام الشهير الذي يقع بالقرب من مكاتب الحاج محمد على زينل على رضا الذي كان يزيد الجالية العربية في الهند، ومجمع سبتارام" يتكون من عدد من العمارات التي كانت تضم مكاتب تجار الكويت وسوريين، وقد كانت أثر المروح أحمد القاضي (أبو خالد) في مكتبه في هذا المجتمع الذي كان يزد على منحه تحت اسم "شركة حمد العلي القاضي".

كان شارع محمد علي أو "محمد علي رود" يقع بالحركة والصخب والضجيج على مدار الساعة، وكان يضم الملاجر والمراكب القديمة للتجار الكويتيين والخليجيين الذين لم يبق منهم إلا القليل، فمن يتمكنوا من تصفية أعمالهم أو التغلب على اشتراطتهم الوفيقة بهذه المدينة، فمن البيوتات أو الأسماء أو العناوين الكويتية اللاحقة لم يبق إلا نفر قليل، كان أثراً، بيت العبيسي، وعبيده أبو فضل، الحاج عيسى العبيسي القناعي أو الجناعي، الذي عندما كنت في يومي كان ما يزال يمارس التجارة منذ العام ١٩٤٦م من مكتبه رقم ١٢ الواقع في وسط شارع محمد على تحت الاسم التجاري "مكتب حسين بن عيسى وأخوهه" وقد كان مكتباً واسعاً على شكل قاعة كبيرة مستطيلة مفتوحة، يجلس في مقدمتها أبو فضل على مقاعداته الخشبية القديمة، وأمامه عدد من الكراسي الجلوس زواره